فى قصـر الأمـيـر حـنـا

عاد الأمير حنا إلى قصره بعد احتفال النصر فى كنيسة صوفيا، كان فياضًا بالبشـر والمرح، وقد زال عنـه ما كان يملأ قلبه من هم ناصب وغيظ كامـن. لقد كان منذ عاد القائـد (بلزاريوس) منصورًا من إيطاليا يكاد الحسـد يأكل قلبه من ذلك المنافس الخطير، الذى حباه القدر، وحداه التوفيق أينمـا حل. كان (بلزاريوس) لا ينزل فـى ميدان إلا عاد منه بالنصر، سـواء كان ذلك فـى قلب العاصمة أو فـى أطراف الدولة، فهو صاحب الفضـل فى تدعيم عرش قيصر عندما اهتزت قسـطنطينية عليه، وثـارت به فى أول حكمه؛ وهو الذى أعـاد للدولة ملك إفريقيا بعد أن نزعهـا الوندال من يديها؛ وها هو ذا يعيد إليها ملك إيطاليا من القوط، بعد أن يئس الروم من استعادته من هؤلاء المتوحشين الأقوياء؛ فهو رجل الدولة الأوحد الذى تتطلع إليه العيون إعجابًا، وتنطق الألسنة كلها بشكره والثناء عليه، هو مع ذلك زوجٍ (أنتونينا) الخاضع الذى لا يملك معها أمرًا ولا يستطيع لها تصريفًا، أنتونينا! هى الأخرى هذه المرأة الماجنة المنصرفـة إلـى هواها، التى لا تعرف فى الحياة إلا إشـباع ميول جسدها الجمرى، هى الراقصة الأخرى التى تقتسم حكم الدولة مع صديقتها الملكة الراقصة الملكة (تيودورا)، شريكتها فى أسرارها

ومؤامراتها وجرائمها. إنها لدولة عجيبة! تحكمها امرأتان طلعتا عليها من حنايا الحانات والمسارح، وميادين السباق، إحداهما تحكم قيصر، يالها من دولة لا يجد فيها حنا (القبادوقى) إلا ذلك المكان الهين الوضيع! إنه لا يزيد على أن يكون رئيس الحرس البريتورى، الذى يُسخَّر فى جباية الأموال من بلاد الشرق لكى يملأ بها خزائن قيصر، ولكى يمكن له ولزوجته فى حياة المجد والبذخ، ويمدهما بما يقيمان به القصور الشامخة والصروح العالية، والكنائس البديعة، ولكى يمكن (بلزاريوس) من أن يقود الجند، ويحرز النصر ويفوز هو وامرأته بالمجد والعظمة، لقد كان الحسد يفعم قلب الأمير حنا، كلما تصور أنه مع خطره وعظيم بلائه وقوة حوله واحتياله، ليس له فى الدولة إلا ذلك المكان الهين، مكان الخادم والتابع والآلة المسخَّرة. لقد كان يطمع فى ملك بعض تلك الدولة، فإنه يجبى أموال الشرق، ويبعث بها غنمية طيبة، لتكون مطية اللذة والنعيم لتيودورا وأنتونينا، وزوجيهما المخدوعين؛ فلِمَ لا يملك ذلك الشرق ويتخذه لنفسه طُعمة نصيبًا له من الغنيمة المباحة؟ ولكنه كان يعرف أنه لن يفوز بشيء من أمله إلا إذا رضيت عنه (تيودورا) امرأة قيصر، ولكم تقرب إليها بالهدايا والملق، ولكم توسل إليها بما استطاع من مكر أو خدمة! ولكنها كانت دائمًا تلقاه مجاملة مؤدبة، جامدة مباعدة، إنما كانت تكرهه وتخشاه، وتعرف مبلغ خبثه، وشدة بطشه؛ فلما لم يجد من تقربه جدوى،

أراد أن يلتمس وسيلة غير التقرب والخدمة، فحاول أن يتقرب إلى الإمبراطوار بالنميمة فى القائد المنتصر (بلزاريوس)، فأخذ يوسوس فى صدر قيصر أن قائده المنصور يطمع فى نزع إيطاليا والاستقلال بها، حتى استطاع أن يهزه ويملأ قلبه شكا فى خادمه الأمين، فاستدعاه من إيطاليا عقب انتصاره ولم يدعه يبقى فى تلك الأرض ليهيمن على حكمها بعد أن انتزعها من العدو بسيفه وحكمته.

وكان يطمع عقب ذلك أن تكون السبيل قد مهدت له ليبلغ ما أمله، فيحل محل القائد المحسود فى قيادة الجيوش التى كان قيصر يزمع إرسالها إلى الشرق لمحاربة كسرى. الشرق! لقد كان قلبه يهتز كلما تذكر أنه لم يبق بينه وبين أمنيته العظمى إلا أن ترضى عنه تيودورا أو أن تكف عن معاندته ومقاومته. ولكنها كانت لا تزال على عهدها معه مؤدبة مجاملة جامدة قاسية، ولا تنفك تعمل على إفساد تدبيره وإحباط دسائسه. لقد أفلحت فى إزالة شكوك زوجها، وإعادة ثقته فى قائده الشجاع (بلزاريوس) زوج صديقتها أنتونينا، وخيبت آمال حنا بعد أن ظن أنها أوشكت أن تتحقق.

كان الكفاح بين حنا وتيودورا لا يزال على أشده فى ذلك اليوم العظيم الذى اضطربت فيه القسطنطينية العظمى بمواكبها لاستقبال قائدها المنتصر والاحتفال بفتوحه الجديدة؛ وكأن الأقدار قد ابتسمت إلى الأمير حنا ومالت إلى تحقيق أمانيه عند

ما أرسلت إليه عونًا فى ذلك الكفاح على غير انتظار، فقد جاء إليه امرؤ القيس وعمرو بن قمية فى ذلك اليوم وأفضيا إليه بما جاءا من أجله قبل ذهابه للاشتراك فى الموكب؛ ولما مالت عليه تيودورا فى أثناء ركوبها فى الموكب وهى مضطربة، وهمست فى أذنه أن يرسل فى أثر الفتى العربى الذى صاح صيحته الغريبة بين الجموع على جانب الطريق، خطر له خاطر لمع فى قلبه كما يلمع وميض البرق فى أذيال الظلام، لقد أدرك اضطرابها وأحس خوفها وانزعاجها عند سماع صيحة الشاب الغريب، وتبين له أن ذلك الفتى الذى أفضى إليه بسره إنما كان يمد إليه سلاحًا ماضيًا لن تستطيع هذه المرأة الصارمة أن تقاومه. لقد بدا له أن يتخذ الفتى وسيلة لإرغامها على التسهل له والعدول عن عداوتها ومعاندتها؛ فلما عاد إلى قصره كان خفيف القلب ظاهر البشر وثاب الخطوات، ودخل إلى البهو الفسيح الباهر، وهو يصفر ويضرب الأرض بعنف ويهز أرجاء المكان برنين مهمازه وقعقعة سلاحه.

والتفت وهو داخل إلى الضابط الذى وقف عند الباب يحييه بانحناءة عظمية وقال له: «أحضر لى الشابين العربيين».

ثم ذهب إلى صدر البهو فخلع لأمته وحل دروعه، واستلقى على مجلس عال غطّته الطنافس المزركشة والستائر الموشّاة، ومد رجليه مستلقيًا ووضعهما على كرسى من الأبنوس المطعم بالصدف والعاج، وترك العنان لخياله وآماله.

جاء امرؤ القيس وصاحبه بعد قليل يسيران وراء الضابط، وقد بدا عليهما اضطراب وغيظ، فما كانا يحسبان أن تستقبلهما قسطنطينية بمثل ما استقبلتهما به في ذلك اليوم.

كانا يسيران مبتعدين عن زحمة الناس على جانب الطريق، وامرؤ القيس يجذب صاحبه من يده في شيء من القسر لكي يخلص به من عيون من كانوا حولهما من جماهير العامة، وقد استرعت صيحة عمرو أنظارهم، وبدأوا يتهامسون ويتحدثون عما عسى أن يكون لهذين الغريبين من شأن؛ وفيما كانا يسرعان في سيرهما لحقت بهما ثلة من الجنود فاستوقفتهما وأشارت إليهما أن يذهبا معهم إلى حيث يأمرونهم، وما كان أشد دهشتهما إذ وجدا نفسيهما يدخلان في حلقة الجند إلى قصر الأمير حنا الذى كانا فيه منذ ساعة، ويدفعان في شيء من الغلظة والوقاحة إلى حجرة مظلمة في ظهر القصر، وهما لا يعلمان من سر الأمر إلا أن تلك عصفة من عصفات العاصمة الصاخبة الجبارة، وكادا يثوران ويعصيان لولا أنهما رأيا نفسيهما حيال عدد لا يستطيعان مقاومته، فاستسلما كارهين والغيظ يملأ صدريهما.

فلما أحضرا بعد ذلك للقاء الأمير، ودخلا عليه في مجلسه، بادر امرؤ القيس فقال مندفعًا: «أعجب لك أيها الأمير أن تسيء إلى من جاء يستنصر بجاهك».

فتحرك حنا جالسًا وتبسم في مظهر الاعتذار، وأشار إلى الشابين أن يقتربا منه ثم أشار إلى الضابط أن ينصرف، وألقى إليه

أمرًا بلغته، فخــرج الضابط وأغلق الباب وراءه»، ورأى امرؤ القيس في إشـارة حنا وابتسامته ونظرته ما خفف من غضبه وألمه، فسار إلى حيث أشـار إليه حنا أن يجلس، ونظر إلى صاحبه عمرو كأنه يأمره بكظم غيظه، واتخذا مجلسهما أمامه وأخذا معه في الحديث.

لم يجد حنا صعوبة في إزالة ما في نفسي الشابين من الألم بعد أن صور لهما أنــه إنما قصد إلى حفظهما من التعرض للأذى، وأنه تظاهــر بالإحاطة بهما خوفًا عليهما من تهم الجواسـيس ونزوات الدهمــاء، بعد أن عرف أن صيحة عمرو قـد حولت إليهما الأنظار وأغضبـت الملكة، وهي امرأة لا تتريـث ولا تحتمل أن تذيع عنها بين الناس قالة تعرضها لفضول الأحاديث.

ولما انتهى من حديثه التفت إلى عمرو فقال له باسمًا في لهجة سخرية عاطفة: «أكنت تريد أن تذهب إليها بين الناس لتضمك إلى صدرها؟ أكنت تحسـب أن الملكة تسـتقبلك بين الجموع الزاخرة قائلة للناس: هذا هو ابني؟».

فأطـرق عمرو خجلا عند ما سـمع هذا القول السـاخر، ولكنه لـم يغضـب منه، فقد عرف أنه انسـاق في ثورة نفسـه إلى حيث لم يكن ينبغي له. واسـتمر حنا فخاطب امرأ القيس في شـيء من الصرامة قائلا: «ليس عليكما من بأس أن تقيما هنا في قصري حيث شـئتما ريثما أدبر لكما ما فيه خيركما. ولكن حذار أن تظهرا بعد

ذلك فى المدينة. فقد صرتما غير آمنين على نفسيكما إذا خرجتما إن يد الملكة لا تمتد إلى هنا. ولكنها تبلغ إلى كل ما وراء ذلك».

فدبت فى نفس امرئ القيس ريح من الثورة وقال فى شىء من الغضب: «ولكنا لم نأت إليك لنقيم فى قصرك أيها الأمير».

فبدا شىء من الكره على وجه حنا، ولكنه تمالك نفسه وأجاب باسمًا وهو ينظر إلى امرئ القيس: «إننى أعلم منك بما هنا فى هذه المدينة. دعنى أدبر لكما ما فيه صلاح شأنكما. ستصل إلى قيصر إذا استوثقت لك منه».

ثم التفت إلى عمرو وقال مشيرًا إليه بيده إشارة رشيقة: «وسيصل عمرو إلى.... أقصد أنه سيذهب إلى أمه العظيمة إذا ما مهدت له السبيل إليها».

ثم أضاف باسمًا وهو يخفض صوته ويغمز بعينه: «إنها لن تحب أن تلقاك فى وضح النهار ولا فى مشهد من الناس يا عمرو».

فنظر إليه عمرو وهو فاتح عينيه مأخوذًا ثائر النفس، حتى إذا انتهى الرجل من قوله خفض رأسه فى شبه ذلة وانكسار ولم يجب، وأشفق عليه امرؤ القيس وتحركت نفسه له رقة، وكأنه نسى شأنه الذى قطع البلاد من أجله، فمد يده حتى وضعها على رأس صاحبه، ومر عليه برفق وقال له: «هون عليك يا صديقى».

وأخذ الأمير عصا كانت على مقربة منه فدق بها على إناء من النحاس فأحدثت صوتًا عاليًا ففتح الباب ودخل أحد الحراس

وانحنى ملبيًا، فقال له حنا كلمات خرج على أثرها، وعاد الأمير إلى ضيفيه فغير مجرى حديثه معهما مفاكهًا، وجعل يقص عليهما من أنباء الروم ومدنهم وحياتهم ما أذهب عنهما ما كانا يحسانه من ضيق وهم، فإذا الجو يتبدل وإذا المرح والسرور يغمران المجلس ونسى الشابان كل شيء إلا ما ينتظرهما من الأنس واللذة فى قصر الأمير.

في مساء ذلك اليوم عاد الأمير حنا إلى مجلسه ودخل عليه امرؤ القيس وصاحبه عمرو بعد أن بدلا ما كان عليهما من الثياب وأزالا عنهما وعث السفر فى حمام بالقصر، وأخذوا معًا فى حديث لم تشبه شائبة من لوم أو غضب، وزالت الكلفة فيما بينهم حتى كأنهم على عهد قديم من المودة والصفاء.

ثم دخل الحارس مستأذنًا وأفضى إلى سيده بكلمات فالتفت حنا إلى صاحبيه باسمًا، وقال وهو يهم بالوقوف: «هلما إلى الطعام أيها الضيفان الكريمان».

وخرج أمامهما إلى بهو فسيح بديع الأثاث، قد مد فى وسطه سماط عظيم، نسقت عليه صنوف الطعام وأطباق الفاكهة، وريح الأفاويه تفوح من حواشيه، ونثرت فى جوانبه الرياحين، ووضعت عليه أكواب وأباريق من الفضة؛ عليها نقوش من ألوان الزهر، وأنواع الوحش والصيد.

وقامت حول السماط فتيات فاتنات بين شقراء وسمراء عليهن ثياب من الحرير تصف أجسامهن المنعمة، فجلس الأمير وأجلس الضيفين أمامه، وقامت الفتيات يطفن بهم: أحداهن تغسل الأيدى فى أوانى الفضة، وأخرى تدهن الشعر من مداهن الغالية، وثالثة تنثر العطور على الثياب وحول المقاعد ثم أخذوا فى الأكل، ودارت عليهم الكؤوس من الخمر المعتقة، وقام بعض الفتيات بين أيديهم يرقصن على توقيع المزاهر وضرب الدفوف. وغاب الشابان فى ثنايا نشوة طربهما، فنسيا ما كان يثور فى نفسيهما من آمال أو هموم.

* * *

مرت الأيام على امرئ القيس وصاحبه فى دار الأمير حنا وهما لا يحسان مَرَّها ولا يكاد أحدهما يفيق إلى نفسه من أثر صبوح أو غبوق، أو تسنح له سانحة من الفكر تذكره بقصده الذى جاء من أجله إلى قسطنطينية، ولم يجد الأمير مشقة إذا سألاه عفوًا فى أمرهما أن يصرفهما عن مساءلته بوعد غامض بأنه سيطلع عليهما بعد قليل بما يحقق لهما الآمال ويقر لهما الأعين.

وكان حنا فى أثناء هذه الأيام يتخذ سبيله إلى الملكة العنيدة، متظاهرًا بالولاء، وهو يدس فى أحاديثه ما يشعرها بأنه يساومها فى ثمن ذلك السر الذى صار فى يديه، ويلوح لها بابنها الذى ساقته الأقدار إليه، أثرًا من آثار ماضيها الأسود الكريه، حتى استطاع بعد حين أن يفوز بوعد منها أن تساعده على بلوغ قصده من

الحكم، وأن تحمل زوجها الإمبراطور على أن يعقد له لواء الجيش الذاهب إلى فارس، وأن يجعله حاكم الشرق، يسوس بلاده، يقود جنوده، ويتربع فى دست سلطانه.

وكان الثمن الذى بذله حنا فى تلك الصفقة العظيمة أن يسلم لها الفتى العربى، الذى أتى ليراها كى تضمه إلى صدرها، وتذرف على رأسه دموعًا تزيل أثر حرمانه الطويل منها، ويصيح قائلًا لها: «أماه! قد وجدتك».

وفى ليلة وديعة من ليالى الصيف الجميلة كان الأمير حنا يقطع الخليج فى سفينة صغيرة، عليها غطاء وستائر من التيل الأبيض، وهو يقودها بنفسه بمجذافين رقيقين يضرب بهما المياه الصافية، والقمر يرسل شعاعه الخافت على الآفاق، فتبدو مبهمة من وراء صفحة البحر اللامعة، كما يبدو المستقبل المجهول فى عالم الخيال. وكان يجلس فى مؤخرة ذلك القارب الفتى العربى عمرو ابن قمية، وهو سابح فى آماله يناجى نفسه عما عسى أن يجده من السعادة إذا لقى أمه الجميلة التى ملأت أحلامه، وقطع أقطار الأرض لكى يراها.

وكانت إقامته فى قصر الأمير حنا تلك الأيام الماضية قد جلت بشرته، وملأت جسمه وجهه بماء الحياة، فبدا فى ملابسه الحريرية الملونة كأنه عود سرو قد أحاطت به خميلة مزدهرة:

قامة معتدلة، ووجه مشرق حسن التقسيم، وشباب ريق لدن.

وكانت تشرق على وجهه بين لحظة وأخرى ابتسامة ضئيلة رقيقة، وهو يعصر يديه ويفركهما، ويهتز في مكانه كلما أعاد تمثل صورة تلك الأم الحبيبة، التي سيراها بعد قليل. وكان في أثناء ذلك ينسق الأقوال التي يقولها إذا لاقاها، وعبارات التحية التي يصور فيها حبه وسعادته إذا ما قبل يديها أو وضع رأسه على صدرها، وفيما كان يتنفس تنفسًا عميقًا ويقول: «أماه!» ارتج القارب رجة أعادته إلى وعيه. فإذا الأمير ينظر إليه باسمًا في خفة ويقول له في صوت هامس:

«هلم بنا يا عمرو. لقد بلغنا القصر».

ثم هبط إلى الساحل ونزل عمرو وراءه، وأسرعا داخلين إلى قصر الملكة المشرف على الخليج.

* * *